ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

طاعون الموت الأسود وجهود أوربا في مواجهته ق14- ق17م

Europe's efforts to confront the "Black Death" plague

الدكتور المحجوب قدار، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس مكناس، المغرب
elmahjoubkeddar@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/05/14 تاريخ القبول: 2020/07/03 تاريخ النشر: 2020/09/30

الملخص باللغة العربية:

يحاول هذا المقال تتبع الجهود التي قامت بها أوربا لمواجهة وباء الموت الأسود الذي أصابها بدءا من القرن الرابع عشر، والذي وصف كأحد أسوء الأوبئة التي عرفتها البشرية، نظرا لهول الخسائر الديمغرافية التي خلفها. وعلى عكس العديد من المناطق الأخرى في العالم بادرت السلطات الحكومة في أوربا إلى القيام بعدة إجراءات منظمة من أجل محاصرته والحد من خطورته، فأنشأت بيوت الطاعون لعزل المصابين، كما شددت اجراءات الحجر الصحي المنزلي، إلى جانب أساليب عديدة في الوقاية. ومع وعينا بصعوبة السيطرة على وباء خطير مثل الطاعون الأسود بإمكانيات تلك الفترة، إلا الاجراءات الوقائية التي أقدمت عليها السلطات المركزية والاقليمية في أوربا قد أبانت على فعاليتها في التقليل من خسائره والتغلب عليه مع حلول القرن السابع عشر، في الوقت الذي استمر في مناطق أخرى إلى القرن التاسع عشر.

الكلمات المفتاحية: الموت الأسود؛ أوربا؛ الحجر الصحي؛ الطاعون؛ بيوت الطاعون؛

Abstract :

This article aims monitoring the European's efforts to confront the "Black Death" epidemic that afflicted Europe during the fourteenth century, which was considered as one of the worst epidemics ever known, because of the horrific lives losses. Unlike many other regions in the world, the authorities in Europe took several measures in order to contain it and reduce its risk by creating "plague-houses" to isolate the patients, and intensifying the domestic quarantine measures, along with many methods of prevention. Being conscious of the difficulty of controlling a serious pandemic, such as the Black Plague, in spite of the limited potentials then, only the preventive

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

measures undertaken by the central and regional authorities in Europe have proved effective in minimizing its losses and overcoming it by the seventeenth century, while it kept spreading in other regions till the nineteenth century.

مقدمة:

عانت البشرية على مر تاريخها الطويل من أوبئة وكوارث متعددة، أثرت في بنيتها الديمغرافية وأسهمت في إحداث تغيرات مهمة في مسار الإنسانية، كما كانت تلك الأوبئة تختبر في كل مرة قدرة الإنسان على البقاء. وقد شكل الطاعون الأسود الذي غزى معظم العالم بدءا من أواسط القرن الرابع عشر أكثر الأوبئة فتكا خلال العصرين الوسيط والحديث، إذ لازالت ذاكرة هذه الفترة تختزن الكثير من الألم والموت والرعب حوله. ولا شك أن المطلع على أخبار الطاعون كما صورتها المدونات التاريخية ومذكرات الرحالة ورسائل الأطباء ستجعله يقف على الحجم الكبير لتلك الكارثة الوبائية، ففضلا عن النزيف الديمغرافي الذي أحدثه الموت الأسود، فقد أثر على على مختلف مناحي الحياة العامة، إذ تقلص الإنتاج الاقتصادي وتسبب في انهيار العديد من الدول، كما أسهم في نمو الظاهرة الصوفية وبروز التمايز الطبقي وغيرها من الآثار المختلفة.

وبمجرد اتصال الوباء بالمنطقة المتوسطية انتشر بسرعة كبيرة في كامل المنطقة تقريبا، فقد دخل إلى أوربا في صيف سنة 1347، ولم تمر سوى سنتين حتى أطبق على كامل القارة، مما يؤشر على طابعه الشديد العدوى. وقد أسهمت عوامل متعددة في نقله بين مدن وبلدات أوربا، إلا أن طريقة الاستجابة له والتعامل معه كانت مختلفة من بلد إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى، ففي الوقت الذي اكتفى فيه الأفراد في بعض المناطق بالخيارات الفردية للنجاة، بادرت السلطات الحكومية في أوربا إلى اتخاذ المبادرة في مواجهته من خلال مجموعة من الإجراءات التي اتخذت طابعا وقائيا.

ولا شك أن خطورة هذا الوباء لا تكمن في كثرة الوفيات التي كان يخلفها فقط، بل في تردده المستمر على فترات متقطعة، حتى بعد اختفائه في موجته الأولى، لا سيما في ظل الامكانات المحدودة لبلدان تلك الفترة سواء على المستوى الطبي أو ضعف سبل المواجهة. لكن الملفت للانتباه أن الباحث في هذا الموضوع سيكتشف أن الوباء قد اختفى في أوربا مع حلول القرن السابع عشر، بينما استمر في حصد ضحاياه في العالم الإسلامي إلى حدود القرن التاسع عشر، أي بفارق قرنين من الزمن تقريبا. ومن البديهي أن الإجابة على هذه الإشكالية تقتضي الإحاطة بتطور الوباء في الضفتين الأوربية والإسلامية على حد سواء، وتتبع تعامل الطرفين مع هذه الكارثة الوبائية،

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

واستنتاج عوامل ذلك في كل طرف. لكن عملنا في هذا المقال سيقتصر على محاولة استجلاء العوامل التي أسهمت في ارتفاع الوباء عن أوربا خلال هذه الفترة. وتتبع الجهود التي بذلت فيها من أجل التغلب عليه. ولعل إماطة اللثام عن هذا الجزء من الإشكالية سيكشف لنا عن الجزء الآخر منها والمتعلق بالعالم الإسلامي.

1. الموت الأسود: وباء أصاب أوربا والعالم خلال القرن 14م

1.1. الموت الأسود: التعريف والانتشار

بحلول أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بدأ يظهر بالحوض المتوسطي وباء غير معروف أخذ يقتل ضحاياه بأعداد هائلة، وسرعان ما انتشر على ضفتي المتوسط الجنوبية والشمالية في ظرف قياسي. وبحكم اكتساحه لبلدن وحضارات متعددة وقتئذ فقد عرف بعدة تسميات، إذ عرف في أوربا بالموت الأسود والطاعون الأسود، وكذا بالطاعون الدملي[1]، بينما وسم في المنطقة العربية بتسميات أخرى مثل الطاعون الجارف[2]، والوباء الوافد[3]، والمرض الهائل[4]، وأطلق عليه أيضا اسم الوباء والطاعون الأعظم[5]. ومهما اختلفت النعوت التي أطلقت عليه إلا أنها تدل مجتمعة على هول وخطورة هذا الوباء الذي كان يخلف من وراءه الموت أينما حل وارتحل، وهو ما يظهر لنا من النصوص التي نقلت بعض صوره، فابن الخطيب يطالعنا بأنه "مرض حاد، حار السبب سمي المادة يتصل بالروح بدء بوساطة الهواء ويسري في العروق فيفسد الدم ويحيل رطوبات إلى

1 - Shona Kelly Wray, Communities and Crisis Bologna during the Black Death, brill, Boston, 2009, p 1.

2 - ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطَّنجي، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط. 1، 1425 هـ - 2004 م، ص 57.

3 - ورد هذا الاسم في عنوان تأليف ابن خاتمة حول الوباء: "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد".

4 - وورد هذا الاسم في عنوان مقالة ابن الخطيب حول هذا الوباء "مقنعة السائل عن المرض الهائل".

5 - ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت. 779هـ)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1417 هـ، ج. 1، ص 325. القلقشندي(ت: 821هـ) ، كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط. 2، 1985، ج. 2، ص 155.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين"[6]. كما تعددت أعراضه بين ظهور الخراج فيما خلف الأذنين أو الابطين، وبمجرد أن يتمكن الوباء من الفرد يصعب أن يفلته، إذ غالبا ما يجعل الفرد يبصق دما فيموت من وقته[7]. كما كان يخلف أحيانا بقعا داكنة على جلد المصابين، ولعل هذا ما يبرر تسمية البعض له بالموت الأسود، أو ربما كانت هذه التسمية هي الطريقة الوحيدة لتصوير ذلك الحدث المفجع للغاية على حد تعبير أحد الباحثين[8].

ومع أن الموت الأسود لم يظهر في الحوض المتوسطي إلا مع أواسط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي إلا أن تتبع الإشارات المصدرية يشير إلى أن هذا الموت الأسود وصل إلى المنطقة المتوسطية من مناطق بعيدة، حددتها بعض المصادر العربية في آسيا الوسطى أو ما يسمى ببلاد الخطا وبلاد المغول[9]. بينما يشير ابن الوردي إلى الوباء ظهر ببلاد أزبك الواقعة بدورها في آسيا الوسطى[10]. وكان قد ظهر بهذه المناطق منذ ثلاثينيات القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، إذ تفيد إشارة وردت لدى ابن بطوطة إلى أن الوباء ظهر منذ سنة 735هـ، حينما فتك نفس الوباء بجيش سلطان الهند محمد ابن تغلق في إحدى حملاته مسببا في موت معظم الجيش[11]. وإذا كانت هذه الإشارة الأخيرة مؤكدة فالراجح أن الوباء قد ظهر قبل هذا التاريخ، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين الذي لا يستبعد أن يكون الوباء قد بدأ منذ سنة 730هـ/ 1330م، في صحراء جوبي أو آسيا الوسطى[12]، بينما يرجعه آخرون إلى سنة 1320م[13]. ومع ذلك يبقى مكان وزمان ظهور الوباء غير

6 - ابن الخطيب لسان الدين (ت 776ه)، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق حياة قارة، الرباط، دار الآمان، 2015. ص 65.

7 - ابن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت. 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، ج. 10، ص 198. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 66.

8 - A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague : the story of London's most deadly year, The Johns Hopkins University Press, Maryland, 2004, p 7.

9 - ابن تغري، النجوم الزاهرة، ج. 10، ص 195.

10 - ابن الوردي المعري الكندي (ت. 749هـ)، تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. 1، 1417هـ - 1996م، ج. 2، ص 333.

11 - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج. 3، ص 208. 217. 247.

12- Joseph P. Byrne, Daily Life during the Black Death, Greenwood Press, London, 2006, p 4.

13 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia of the Black Death, Santa Barbara, California, ABC-CLIO, 2012, p 43.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

معروف بشكل دقيق، لكنه انطلق من منطقة ما بين الصين وشبه جزيرة القرم، خلال ثلاثينيات القرن الرابع عشر.

وعموما فبعدما ظهر وباء الموت الأسود أخذ يتجه غربا إلى أن وصل بلا فارس، ومنها نحو جنوب روسيا بين سنتي 1345م و1346م[14]، ووصل برا إلى شبه جزيرة القرم خلال نفس الفترة[15]، ومنها اتصل الوباء ببلاد الروم[16]. ففي صيف 1347م اعتلت الفئران والبراغيث المصابة بالطاعون الدملي السفن التجارية الجنوية في ميناء كافا على البحر الأسود، عابرة مضيق الدردنيل في إتجاه الموانئ المتوسطية لإيطاليا وفرنسا، ناقلة معها السلع والبضائع وكذلك الوباء إلى المناطق التي رست بها[17]. فأصاب الوباء القسطنطينية، ومن العاصمة البيزنطية انتقل جنوبا إلى الاسكندرية وغربا نحو صقلية[18]؛ كما عممت السفن والقوافل الطاعون أسفل النيل والبحر الأحمر وصولا إلى مكة المكرمة، وكذلك عبر شمال إفريقيا وأعلى الساحل من سيناء[19]. وقد مثلت سفن الشحن التي ترسو بشكل متكرر على الموانئ السفن المثالية لنقل الفئران وأمراضهم إلى مختلف المرافئ التي رست بها[20]. ودون أن يستغرق الأمر وقتا طويلا بدأ الوباء في حصد ضحاياه من مختلف الفئات الاجتماعية بكل صقلية وبيزا وجنوا الإيطالتين ومرسيليا الفرنسية[21].

لم تنقل السفن الساحلية الطاعون إلى جنوب فرنسا فحسب، بل نقلته إلى الموانئ الإسبانية في أراغون وكاتالونيا، بينما اضطلعت السفن النهرية والعربات البرية بإدخال المرض إلى المناطق الداخلية في الريف. كما أخذ المرض في التمدد شمالا فبلغ انجلترا مع البضائع القارية وعبر عبر جبال الألب من إيطاليا إلى ألمانيا والنمسا. أوربا الشرقية بدروها لم تسلم من الوباء، فقد انتقل المرض شمالا عبر البلقان والمجر وشرقا عبر نهر الراين، كما لم تنج المدن الأوربية الأخرى على طول بحر البلطيق، ومنها نحو الموانئ الاسكندنافية الأخرى، غير أن خسائر هذه المناطق الشمالية كانت

14 -Rosemary Horrox, The Black Death, Manchester University Press, Manchester, p 8- 9.

15 - op cit. p 9.

16 - ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج. 2، ص 333.

17 - شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ المرض والوقة والامبرالية، ترجمة وتقديم أحمد محمود عبد الجواد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط. 1، 2010، ص 65.

18 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 43.

19 - ibid, p 43.

20 - ibid, p 43.

21 - شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ، ص 65.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أقل ضـراوة منها في المناطق الجنوبية المتوسـطية المشـمسـة[22]، مما يطرح إمكانية تأثر الفيروس المسبب في الموت الأسود بعامل الحرارة.

والظاهر أن الوباء قد سلك في انتشاره نفس مسالك التجارة الدولية أنذاك سواء البرية منها أو البحرية، إذ وفرت العلاقات التجارية التي كانت تربط دول حوض المتوسط بعضها ببعض الأرضية الخصبة لانتقال الوباء من منطقة إلى أخرى، لا سيما وأنه لم تمض سوى سنتين على أول ظهور للوباء في الحوض المتوسطي حتى أطبق على كامل المنطقة بين سنتي 1347م و 1348م[23].

سفر الوباء لم يقتصر على السفن التجارية فقط، بل تكفلت بحمله عن دون قصد الجيوش والبعثات الدبلوماسية وقوافل الحجاج، إلا أن السفن تبقى أخطر وسيلة أسهمت في تفشي المرض على نطاق واسـع، إذ لا شـك أنها كانت وراء ظهور بؤر وبائية عديدة على الموانئ المتوسـطية والأطلنتية، توسـعت منها العدوى بشـكل موازي ومتزامن حتى أطبقت على كامل العالم القديم. فالوباء الذي استغرق أكثر من عشر سنوات ليصل من آسيا الوسطى إلى سواحل المتوسط، لم يكن في حاجة إلا لسنتين فقط لينتشر في الحوض المتوسطي كاملا. فالموانئ كانت بمثابة نقط الارتكاز، بينما كانت الأنهار بمثابة الشعيرات التي ربطت تلك النقط بعمق اليابسة في معظم الحوض وخاصة أوربا.

2.1. جوانب من مخلفات الطاعون الأسود على أوربا

كانت مدن روسـيا آخر المناطق التي تم اختفى بها الموت الأسـود في موجته الأولى، حيث سـجلت بسـكوف " Pskov " ونوفغورود "Novgorod " وموسـكو " Moscow" هجمات رهيبة في عام 1352[24]. وبذلك يكون الموت الأسـود قد امتد على مدى خمس سـنوات أي بين 1347 و 1352، مخلفا خسـائر فادحة طالت مختلف الجوانب. وحسـبنا أنه قتل الملايين محدثا بذلك نزيفا ديمغرافيا مهولا، ويكفي الرجوع إلى مدونات المؤرخين ومذكرات المسـافرين والرحالة ودفاتر الأطباء خلال هذه الفترة للاطلاع على الأرقام المخيفة للوفيات التي كان يخلفها بشـكل يومي في أوربا ومدن الشـرق الإسلامي وشمال افريقيا والأندلس. إلى درجة أنه قتل أربعة أشخاص من بين كل عشرة حسب تقدير

22- Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 44- 45.

23 - شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ، ص 65.

24 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 45.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

أحد الباحثين[25]، بينما قدر بعضهم الحصيلة الإجمالية في أوربا بأكثر من 35 مليون قتيل[26]. وذهب آخر إلى أن الخسائر ناهزت 60 % من السكان، أي حوالي 48 مليون نسمة من بين 80 مليون نسمة كإجمالي عدد سكان القارة وقتئذ[27]؛ ومهما اختلفت التقديرات فالمتفق عليه أن الموت الأسود مثل أسوء كارثة وبائية أصابت أوربا منذ انهيار الامبراطورية الرومانية[28].

وحتى من نجا من المرض لم ينج من تبعاته الاقتصادية والاجتماعية، إذ لم يسبب هذا الوباء في الموت فقط، بل جر معه ويلات متعددة على الناجين كالمجاعات وكثرة السرقات وغياب الأمن وقلة السلع المختلفة. فقد كان من الطبيعي أن يتأثر الاقتصاد الأوربي، فالموت طال مختلف الفئات الإنتاجية والاستهلاكية، مما انعكس على الإنتاج الاقتصادي برمته[29]. كما تركت المحاصيل والحيوانات دون رعاية بسبب موت الفلاحين أو هروبهم، فاختفت آلاف المزارع، بالرغم من الأجور المرتفعة والتحفيزات التي تمتع بها العمال خلال هذه الفترة[30]، كما انهارت الأسواق وغيرها من الضروريات، وأهملت البنى التحتية من طرق وسدود[31].

ومع أن أن الوباء قد اختفى في حدود سنة 1352م في أوربا، إلا أن ارتدادته استمرت على مدى قرون بعد ذلك، إذ ضرب أوربا على فترات متقطعة إلى حدود القرن السابع عشر الميلادي[32]. لكن يبدو أن آثاره الاقتصادية قد تقلصت على مدى القرن والنصف التاليين، حيث تكيف الاقتصاد مع انخفاض السكان بشكل كبير، ومع ذلك، فإن الجمع بين انخفاض الإنتاج والتجارة خلال الأوبئة والتكاليف المباشرة المفاجئة المرتبطة بجهود مكافحة الأوبئة المتزايدة التعقيد استنزفت الميزانيات المدنية. من جهة أخرى استوعبت الاقتصادات الأوروبية القوية الاضطرابات المحلية الناجمة عن الطاعون على المدى الطويل، لا سيما مع المتغيرات التي أفرزها الوباء؛ فقد استفاد الناجون من إعاد توزيع ثروة الضحايا، مما أدى في النهاية إلى زيادة الطلب، كما زاد الطلب على الكماليات المستوردة

25 - Joseph P. Byrne, Daily Life, p 5.
26 - ibid, p 5.
27 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, 45- 46.
28 - شلدون، الأوبئة والتاريخ، ص 65.
29 - ibid, 127- 128.
30 - ibid, p 45.
31 - ibid, 128-129.
32 - A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague, p 14.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

والمحلية ونما أيضا الاستثمار في التجارة عامة والتجارة الإقليمية على وجه الخصوص. لكن العديد من هذه الاتجاهات استغرقت عدة عقود لتأسيس نفسها[33].

تسبب وباء الموت الأسود أيضا في اختفاء العديد من القرى الصغيرة لصالح جيرانها الأكبر، فقد ركدت المدن الصغيرة في مقابل نمو المراكز الإقليمية الأكبر على الأقل في إنجلترا؛ كما نمت المدن بشكل أسرع، حيث اجتذبت أعدادًا كبيرة من العمال الريفيين. كما سجلت هذه المرحلة دخول المرأة للمجال الاقتصادي في العديد من الأماكن، إذ أضحت في حاجة إلى تعويض دور الأزواج الذين سقطوا في الوباء[34].

أثر الوباء القاتل في بنية المجتمع الأوربي بدورها، وكانت الفئة الأرستقراطية أكثر الفئات تأثرا إلى درجة اختفاء سلالات بأكملها[35]. كما تحول جزء من الأقنان إلى مستأجرين أو عمال يوميين ومزارعين في شمال إيطاليا[36]. أعمال البناء في القارة لم تنج هي الأخرى، حيث تشير الوثائق إلى توقف أعمال توسعة كنيسة سيينا "Siena " بإيطاليا بسبب الموت الأسود[37].

دون أن ننسى أن الموت الأسود قد أثر على النمو الديمغرافي الذي تباطئ بشكل واضح نتيجة تأثره بالمرض والمجاعة[38]. وهناك من يذهب إلى إمكانية إسهام الطاعون والاضطرابات التي أحدثها في آسيا الصغرى والمشرق الإسلامي في صعود العثمانيين39. الأكثر من ذلك ليس من المستبعد أن يكون هذا الوباء قد شكل إحدى أهم العوامل التي كانت وراء خرروج أوربا من عصورها الوسطى المظلمة، كما سيستشف ذلك من الأدوار التي أجبر الطاعون الحكومات الأوربية على القيام بها.

ومن الأمور الغريبة والملفتة للانتباه زمن الموت الأسود أيضا اتهام اليهود من قبل المسيحيين بالتسبب في نشر الموت الأسود عبر تسميم الطعام والآباء والجداول، وبالرغم من تكذيب كليمنت السادس لتلك الاتهامات، إلا أنهم كانوا أهدافا سهلة للغوغاء بحكم تجمعهم في أحيائهم، فمات منهم المئات[40]. وقد أشار أحد الباحثين إلى أن تعرض اليهود للإبادة جاء كنتيجة

33 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, 127- 128.
34 - ibid, p 127- 128.
35 - ibid, p 127- 128.
36 - ibid, p 128-129.
37 - ibid, p 24- 25.
38 - ibid, p 128- 129.
39 - ibid, p 42.
40 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 44

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

للصـــراع الطبقي المدفوع بالنجاح التجاري اليهودي وضـــد اســـتغالالهم المفترض للطبقات الثانوية، الأكثر من ذلك يسجل أن الاضـطهاد اسـتمر ضـدهم على مدى الخمسـمائة سـنة التي تلت الطاعون، مما أثر على أعدادهم وأنماط استيطانهم في أنحاء أوربا[41].

2. بعض جوانب تدخل السلطات في أوربا لمحاصرة الوباء

لم تكن أوربا كما باقي العالم مســتعدة لمواجهة وباء قاتل كالموت الأســود، فلا البنية الصـحية ولا الاقتصـادية ولا العلمية كانت قادرة على اسـتيعاب خطورة الوباء ومخلفاته. ومع أنه سـاد في بداية الأمر اعتقاد في أوربا بأن الموت الأسـود هو غضـب من الله سـلطه عليهم، إلا أن الانتشـار الواســع للعدوى والارتفاع المهول لعدد الضــحايا، جعلت منه وحشــا مخيفا خلف الرعب في قلوب الجميع. كما فرض على الجميع ضــرورة التحرك بســرعة لاحتواء الوباء أو على الأقل التقليل من ضــحاياه، لا ســيما بعدما تأكد لهم انتقال العدوى من شــخص للآخر، وإســهام ملابس ومتخلفات الضحية في نقل العدوى أيضا. إضافة إلى كونه لا يفرق في استهدافه بين الناس. لكن الذي ميز أوربا في مواجهة الوباء هو اضــطلاع الســلطة الحاكمة بأعباء فرض الاجراءات وتتبعها. ومع أن اجراءات وجهود الوقاية والمراقبة قد اختلفت بين أقطار أوربا إلا أن المتفق عليه أن معظم المناطق قد بادرت إلى محاولة الحد من خطورة الوباء. وقد تراوحت اجراءات مواجهته بين الحجر الصــحي وتشــديد أساليب الوقاية.

1.2. إنشاء بيوت الطاعون للعزل الجماعي

لقد خلف الوضـع الجديد المرتبط بالطاعون الأسـود متغيرات كثيرة لم تكن لتخطر على بال أحد، فالخوف من الموت والرغبة من النجاة جعل الوالدين يتخلون عن أطفالهم المصــابين، كما تخلى الإخوة عن إخوتهم، ومع ما في هذا التصرف من معقولية لتنجب الإصابة بالمرض، إلا أنه تعبير عن فشل أخلاقي مروع42. ولا شك أن مثل هذه السلوكات قد حفزت بدورها السلطات على التحرك، التي قامت في البداية بعزل المصـابين في منازلهم، كما عزلت المصـابين المحتملين43، ليتطور الأمر

41 - Samuel K. Cohn Jr, THE BLACK DEATH AND THE BURNING OF JEWS, The Past and Present Society, no 196, Oxford, 2007, p 3- 36.

-42 Joseph P. Byrne, Daily, p131.

43 - Shona Kelly Wray, Communities and Crisis: Bologna during the Black Death, (The medieval Mediterranean: peoples, economies, and cultures, 400–1500), Brill, Lieden, 2009, p 4 .

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بعد ذلك إلى إنشاء أماكن خاصة بالضحايا، لم تكن في البداية سوى أكواخ بسيطة خارج أسور المدينة. لكن أمام التمدد الواسع للمرض لم تعد تلك الأكواخ كافية، مما جعل السلطات تستحوذ على المستشفيات والأديرة لغرض استعمالها في الحجر. وبعدما امتلأت هذه الأخيرة بدورها بدأ التفكير في إنشاء أماكن أكبر، وهكذا ظهرت "بيوت الطاعون" أو مستشفيات الأمراض الوبائية بأوربا[44].

ولأن الظهور الأول[45] لبيوت الطاعون في أوربا كان بالمدن الإيطالية فقد عرفت بـــ " lazar houses"، أو lazaretti" وهو اسم ايطالي يفيد الأماكن المخصصة لعزل المصابين بالطاعون، كما يشير هذا الاسم أيضا إلى معنى "مستشفى الأوبئة"، كما سميت بـ "pest houses". ظهرت لأول مرة في ايطاليا في أواخر القرن الثالث عشر، لما تم تحويل دير قديم في إحدى الجزر لايواء المصابين بالأمراض المعدية. لكن الملاحظ أن بيوت الطاعون لم تتكاثر في أوربا إلا ابتداء من القرن الخامس عشر، عندما أنشأت سلطات البندقية منشآت دائمة للعزل لإيواء أطقم السفن والمسافرين الواردين على المدينة بشكل مؤقت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر[46] ويبدو أن الحاجة إلى إنشاء مثل هذه الأماكن لم تكن ملحة إلا في أوقات نزول الطاعون، الذي ما إن يختفي حتى يظهر من جديد. فقد دعت الحاجة سلطات مدينة ميلانو إلى بناء واحدة من بين أضخم بيوت الطاعون، لما ضربها الطاعون مجددا سنة 1480، وقد ضمت حوالي 288 غرفة، تبلغ مساحة الواحدة منها حوالي 20 مترا مربعا47. أما في فرنسا فقد ظهرت بها البيوت الأولى للطاعون خلال القرن الرابع عشر، لكن بروزها بشكل ملحوظ لم يبدأ بها إلا في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، عندما أقدمت السلطات الفرنسية على سن مجموعة من الإجراءات للحد من آثار الوباء على الساكنة[48].

وتجدر الإشارة إلى أن بيوت الطاعون لم تقتصر على المدن فقط، بل تم انشاؤها في الأرياف أيضا، إذ اتخذت في الريف الإنجليزي شكل منازل كبيرة، بناها السكان المحليون لهذا الغرض[49] وقد

44- Joseph P. Byrne, Daily Life, p 143- 145.

45 - تجب الإشارة إلى السبق الذي حققه العالم الإسلامي في مجال الحجر الصحي من خلال إقدام الوليد بن عبد الملك على بناء أول مستشفى "بيمارستان" لعزل المصابين بالجدام لمنعهم من الاختلاط بالأصحاء أو باقي المرضى. جابر بهزاد، الكافي من تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار مصباح الفكر، 1986، ص 39.

46- Joseph P. Byrne, Daily Life, p 144 .

47 - ibid, p 144.

48 - ibid, p 145 .

49 - ibid, p146 .

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

يتم إحداث بعض بيوت الطاعون بالقرب من السكان، لكن تضخمها فرض نقلها إلى مكان آخر لمنع انتقال العدوى للأصحاء[50].

أما نقل المصابين بالطاعون الأسود إلى بيوت الطاعون فقد كان يتم تحت إشراف رسمي من قبل السلطات في المدن الإيطالية، كما خصصت مدن النهضة بايطاليا مجالس خاصة للإشراف على مثل هذه الأعمال زمن تفشي الأوبئة، ووضع مسؤولو الصحة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مراسيم وعقوبات صارمة[51]، الشيء الذي يعكس جدية وصرامة تعامل السلطات مع الوباء القاتل.

والملفت للانتباه أن الاغنياء قد أسهموا بدورهم في مواجهة الطاعون الأسود، إذ تشير النصوص إلى تبرع إحدى السيدات من اوترخت الهولندية بثروة كبيرة لفائدة الفقراء للاستعانة بها على الوباء، فوظفتها سلطات المدينة في بناء أحد البيوت المخصصة لضحايا الطاعون على مساحة كبيرة خارج أسوار المدينة، مخصصة جناحا منها للرجال وآخر للنساء، واستخدمته في الأيام العادية كدار ضيافة للمحتاجين والمسافرين[52]. وغالبا ما كانت تؤجر هذه البيوت لأغراض أخرى عندما يختفي الوباء[53].

وما دام أن المصابين كانوا ممنوعين من مغاردة هذه البيوت، فقد كان من اللازم أن يشرف على خدمتهم بعض الأصحاء، وقد ضم طاقم الخدمة أطباء ورهبان وخدم من أجل العناية برعايتهم وتطبيبهم والقيام بأعمال الطهي والغسل وغيرها من احتياجات هؤلاء. بيد أن القليل منهم كان يقبل بهذه المهام رغم الإغراءات والحوافز المالية الكثيرة، إلى درجة أن سلطات بعض الدول قد لجأت في وقت لاحق إلى مبدأ الإجبار، لأن الجوائز لم تكن كافية. وإذا ما علمنا الخطورة التي قد تجرها خدمة المصابين عليهم فإننا سنفهم رفض هؤلاء القيام بتلك المهام. إذ بالرغم من إجراءات الوقاية التي كان يلتزم بها طاقم الخدمة، إلا أنها لم تمنع عنهم الإصابة بالعدوى في أيام قليلة[54]. ولعل هذا ما دفع بسلطات بعض المدن إلى الدفع بالمجرمين المدانين بأحكام إلى الخدمة أحيانا بمثل هاته البيوت[55].

لكن الغريب أن بعض المشرفين والعمال على هذه البيوت قد قاموا أحيانا بأعمال غير أخلاقية كالزنا بالنساء في الداخل، إضافة إلى سرقة ممتلكات النزلاء، ويزداد الأمر غرابة إذا علمنا أن

50 - A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague, p 133- 134.
51 - Shona Kelly Wray, Communities, p 4.
52 - Joseph P. Byrne, Daily Life, p 146 .
53 - ibid, p 144.
54 - ibid, p 146- 147.
55 - ibid, p 147.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

رجال الدين هم من كانوا يشرفون على مثل هذه البيوت[56]. ومما يعجب له أيضا ذهاب بعض المصادر إلى اتهام عدد من القائمين على مكافحة الوباء بجنيف خلال القرن السادس عشر بنشر الطاعون بين الأصحاء عبر تلطيخ أبواب منازلهم بمرهم الطاعون[57].

ولم تقف معاناة المصابين في العزل الإجباري على هذا فحسب، بل عانوا أيضا في بعض البيوت من شدة الازدحام وقلة الأغطية وسوء الطعام والتنظيم، بل يمكن القول أن ما عانوه من سوء الطعام كان أكثر مما عانوه من الطاعون نفسه. كما كان على المصاب إحضار أغطيته معه وإلا سيضطر إلى افتراش الأرض، فضلا عن الصراخ والنحيب والرثاء والروائح النتنة، ومشاهد الرعب داخل هذه البيوت، مما أفقد للكثير عقولهم. وتبقى أكثر المشاهد فضاعة تلك التي تتعلق بإلقاء أولئك الذين كانوا قريبين من الموت بدون حركة من قبل حاملي الجثث مع باقي القتلى[58]، كل ذلك جعل عددا من تلك الفضاءات في أوربا نسخة أقرب إلى الجحيم.

كل تلك المشاهد المرعبة من داخل بيوت الطاعون جلعت الكثيرين ينظرون إليها نظرة غضب، إذ لم يروا فيها مجرد سوى أماكن يرسل إليها الفقراء للموت، ليرمى بجثثهم بعد ذلك في حفر متاخمة. ولم تسلم هذه الظروف من مظاهر التمييز والطبقية سواء على مستوى طبيعة الإقامة أو فرص الحصول على طبيب، إذ غالبا ما تخصص للأغنياء غرف خاصة بناء على الدفع[59].ولعل هذا ما دفع بالمئات من الرجال والنساء إلى الخروج لشوارع فلورنسا سنة 1639 للمطالبة بإغلاق بيت الطاعون الكبير[60].

وبالنظر لحجم انتشار الوباء فقد كانت أعداد المصابين المحاصرين في بيوت الطاعون كبيرة جدا، قاربت حوالي 10000 مصاب في وقت واحد في بيت الطاعون بميلان سنة 1629، بينما كان يتم دفن المتوفين في حفر جماعية[61]. لكن بالرغم من خطورة الوباء إلا أن نسبة المتعافين كانت مرتفعة أيضا، فقد قاربت حوالي 50 % تقريبا. واختلفت النسبة من بلد إلى آخر، ومن فترة إلى أخرى بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر[62].

56 - ibid, p 147.
57 - ibid, p 147.
58 - ibid, p 150.
59 - A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague, p 176.
60 - ibid, p 19.
61 - ibid, p 221.
62 Joseph P. Byrne, Daily Life during, p 153.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

2.2. تشديد الحجر الصحي واجراءات الوقاية

لم تقتصر الإجراءات الحكومية في أوربا على إنشاء بيوت لعزل المصابين فقط، بل امتدت إلى إجراءات أخرى عديدة يمكن إدخالها في خانة الحجر الصحي والوقاية. ففي الشمال الإيطالي تم ابتكار مفهوم النظام لمواجهة الوباء[63]. ومع اقتراب الطاعون من ميلانو في ربيع 1348 قرر دوق ميلان ومستشاروه العمل وفق مسارين، أولاً منع دخول المدينة لأي شخص من أي مكان يشتبه في أنه طاعون؛ وفي حالة ظهور الطاعون في المدينة، قام بعزل الحالات على الفور في منازلهم، وبذلك جنب ميلان مصير معظم المناطق الحضرية. كان المبدأ الكامن وراء الإغلاق هو المفهوم الغامض للعدوى التي تحدث مع الاتصال بالضحايا. بل ذهبت السلطات في المدينة إلى إعداد لوائح للمصابين، وإذا ما تم العثور في إحدى المنازل على ضحية طاعون يطلب من أهله البقاء بداخله لفترة محددة كنوع من الحجر الصحي[64]. أما ملك انجلترا إدوارد الثالث ومن أجل الحفاظ على الضبط الاجتماعي، فقد قام بمنع الارتفاع الطبيعي للأجور والأسعار في أعقاب الطاعون مباشرة من خلاله إصداره لبعض القوانين[65].

ويبدو أن الهجمات الارتدادية التي شنها الوباء على أوربا بعد القرن الرابع عشر قد أهلها لصقل تجربتها في التعاطي معه، لكن يبدو أنه مع حلول القرن السادس عشر بدأت المدن الأوربية في ترشيد استجاباتها للأوبئة بتطبيق إجراءات الحجر الصحي على الأفراد بشكل عقلاني وأكثر صرامة، حيث اتسعت عملية العزل الجماعي في بيوت الآفات، وظهرت عدة تشريعات لتقنين التجمعات العامة [66]. من جهة أخرى طبق البعض العزلة الذاتية، إذ كان المرء يغلق عليه باب بيته، بعدما يتزود بكميات وافرة من الطعام والشراب والأدوية، بينما بقي بعضهم على اتصال بالعالم الخارجي للتزود بالحاجيات الأساسية، والاستعلام عن أخبار الوفيات، وغالبا ما كانوا يبنون عليها طبيعة تحركهم في حالة الانتقال إلى مكان آخر آمن[67].

وقد اختلفت طبيعة تعامل السلطات في أوربا مع المصابين بالطاعون الأسود، وبلغت أحيانا مستوى فضيع من القسوة، فقد كانت سلطات لاهاي "The Hague " تغلق البيت على

63 - شلدون، الأوبئة والتاريخ، ص 67.

64 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 325.

65 - ibid, p 45.

66 - ibid, p 128-129.

67 - Joseph P. Byrne, Daily Life during, p132.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الضحية مع من اختار البقاء معها من الأسرة، وتسيجه بأكلمه بسلسلة مقفلة، كما تم تمييز بيوت الطاعون بوضع علامة "PP" أي "plague present". بينما وضعت سلطات رايموند " Roermond " لوحات من الصفيح مكتوب عليها "يسوع" على الأبواب الأمامية لبيوت الطاعون مع ضرورة الإبقاء على الأبواب والنوافذ مغلقة[68]، بل حتى ثقوب المفاتيح تم إغلاقها، ولم تترك سوى فتحة واحدة فقط لتمرير الطعام والضروريات الأخرى، وغالبًا ما كانت هذه الفتحة في الطابق الثاني، مع الحرص على تسليم الإمدادات في سلة عبر حبل[69].

أما في اورترخت "Utrecht" فكانت تتم تغطية أبواب المنازل المصابة بثوب أبيض، أما إذا ماتت الضحية فكان يتم إسقاطها من النافذة[70]. كما كان يفرض على كل شخص زار منزل الضحية أن يحمل عصا بيضاء في الأماكن العامة لمدة أسبوعين بعد ذلك، ولم يكن من الممكن للذي كانوا مخالطين للضحية أن يغادروا البيت إلا بعد مرور ستة أسابيع بعد الوفاة مع حمل العصا البيضاء أيضا، ولا يحق لهم الاقتراب من الآبار أو غيرها من إمدادت المياه[71]. أما من التزم بالبقاء في المنزل فقد كان تعطى له فرصة المشي في الشوارع في أوقات معينة[72].

كما تعززت سبل الوقاية بانجلترا بشكل ملحوظ ابتداء من القرن السادس عشر[73]، إذ طبق الحجر الصحي على السفن القادمة من الموانئ الأجنبية المصابة، كما وضعت حراسا على أبواب المدن الكبرى[74]. بينما استمر اغلاق منازل الطاعون في لندن لمدة عشرين يوما على جميع أفراد الأسرة إذا ما تبثت إصابة أحد أفرادها، كما استعملت صليبا على ورق أزرق أو أبيض كعلامة عام 1578 لتمييز بيوت المصابين. والملاحظ أن سلطات المدن عموما كانت تجد نفسها مضطرة إلى مزيد من الصرامة في التعامل مع المخالفين لاجراءات الحجر الصحي، إذ تقرر تمديد فترة الحجر في لندن إلى ستة أسابيع ابتداء من سنة 1578م، وتطور الأمر في المدينة في مستهل القرن السابع عشر إلى اتخاذ البرلمان لقرارات أكثر إكراه كاستعمال العنف مع المخالفين لقرارات الإغلاق، أما من وجد يتجول في الشارع وعليه أعراض الطاعون فقد اعتبر من المجرمين. وقد تكلفت سلطات المدينة

68 - ibid, p 133.

69- Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 325.

70 - ibid p 325.

71 - Joseph P. Byrne, Daily Life during, p 133.

72 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 325.

73 - شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ، ص 65- 67.

74 - A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague, p 14.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

بإمداد بعض الأسر الفقيرة بالمؤن الغذائية للحفاظ على الحجر، ولكن ذلك كان ملكفا جدا، إذ عانت كثيرا من صعوبة الحصول على الأموال لإعالة الفقراء، إلا أن هذا الاجراء لم يكن ليمنع موت البعض بسبب المجاعة جراء الاغلاق[75]. أما في إيطاليا فقد تضاعف عدد المنازل المغلقة في 1631، إذ أغلقت بيستويا "Pistoia " 125 منزلاً، وهي عبارة عن بلدة إيطالية يقطنها حوالي 8000 نسمة[76].

ومن الطبيعي أن القيام بمثل هذه الاجراءات لم يكن يسيرا بل تطلب إلى جانب قوة السلطة الحاكمة الموارد المالية الكافية، فقد داوم الحراس على القيام بدوريات بين المنازل المصابة لضمان الامتثال. كما شملت النفقات الأخرى الأقفال أو المسامير والأفراد الطبيين والأدوية والمواد الغذائية ومواد التبخير ووقود الطهي. إلى جانب تكاليف رعاية بيوت الطاعون[77]. من جهة أخرى أُجبرت الحكومات الإقليمية والمركزية على توفير الضروريات للمحاصرين في بيوت العزل، في المقابل لجأت بعض المناطق إلى عمليات الطرد الوحشي للفقراء لخفض تكاليفهم[78]. بينما أغلق حكام ميلان الأقوياء البوابات وطردوا الزوار الملوثين، مما قلل من معدل الوفيات إلى بضع عشرات الآلاف[79].

ومع أهمية دور الطاعون في تعزيز دور السلطة الحاكمة، إلا أنه أسهم أيضا في استبداد الحكومات بشكل متزايد، إذ عوقب أولئك الذين هربوا بعقوبات قاسية بلغت الإعدام الفوري[80]. وغالبا ما كان إعلان الطاعون في مدينة ما مرادفا للنبذ، لا سيما مع إسراع الحكومات المركزية إلى شد الحبال، وإغلاق الموانئ، ووقف التجارة معها، ومنع أولئك الذين يمكنهم الفرار من المدينة. وقد تسبب ذلك في حالات كثيرة من التأخير الطويل في الاعتراف رسميًا بوجود الطاعون[81].

وأمام صعوبة التغلب على الطاعون فقد اضطر الناس إلى ضرورة التعايش معه، لذلك ظهرت مجموعة من إجراءات الوقاية التي عمل بها المشرفون على خدمة المصابين في بيوت الآفات مثل الأطباء أو رجال الدين أو كتاب العدل فقد ملزمين بالوقاية أكثر من غيرهم، إذ كانوا يغطون أفواههم وأنوفهم بقطعة قماش مبللة بالخل، كما حرصوا على الالتزام بمسافة الآمان، وتقديم الطعام

75 - Joseph P. Byrne, Daily Life during, p 134.
76 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 326- 327.
77- ibid, p 327 -326 .
78 - ibid, p 128-129.
79 - ibid, p 44.
80 - ibid, p 326- 327.
81 - ibid, 128-129.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

عن طريق قضيب طويل، بينما كان الأطباء يفحصون بول المريض عبر النافذة، كما استخدم بعضهم مسحوق الضفدع المجفف، وبحلول القرن السابع عشر كان عمال بيوت الآفات ومعهم حفار القبور وحاملوا الجثث يرتدون في كثير من الأحيان عباءات مشمعة لمنع انتقال العدوى[82].

الشيء نفسه اجتهد الناس العاديون للعمل به خاصة على مستوى التعقيم، ومما كانوا يستعلونه في هذه العملية تدخين المواد التي يتم احضارها للبيت من الخارج بالكبريت المحترق أو رشها بالخل أو البارود، وكذلك كانوا يفعلون مع البريد الوارد[83]، وإن كانت خدمات البريد والرسائل قد شهدت تعثرا كبيرا بسبب الوباء[84]. من جهة أخرى تم تكثيف عمليات تبخير المنازل بالدخان لمواجهة الهواء الفاسد، حيث قامت العائلات بحرق الصوف والقطران، وربما البخور أو الأعشاب، أو إطلاق البارود. في المنازل الأفقر أحرقت الأحذية القديمة أو قصاصات الجلود[85].

أما في العالم الإسلامي فلم تظهر سياسة حقيقية لمواجهة الوباء حتى مطع القرن التاسع عشر مع محمد علي[86]. لكن أكثر ما ميز المنطقة الإسلامية خلال هذه الفترة هو تناسل التأليف حول الوباء بشكل ملفت، إذ حاول الأطباء من جهتهم شرح الكارثة، الأمر نفسه قام به عدد مهم من الفقهاء والأدباء والمؤرخين، كل واحد من هؤلاء قارب المرض من زاويته الخاصة[87]، والحق يقال أن تلك التآليف حاولت تبديد غموض المرض الوافد. وإذا كان البعض من هؤلاء قد ألقى باللوم على الهواء الفاسد والملوث، فإن البعض الآخر قد ربط الوباء بغضب الله، فدعا إلى الاكثار من العبادات

82- Joseph P. Byrne, Daily Life during, p 132.

83- ibid, p 132.

84 - A. Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague, p 211.

85 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 325 .

86 - شلدون، الأوبئة والتاريخ، ص 67.

87 - ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر "رسالة الشفاء لأدواء الوباء" للكندي(ت نحو 260 هـ)، وكتاب "مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء" لمحمد بن أحمد التميمي المقدسي (ت بعد 370هـ)، و"مقنعة السائل" لابن الخطيب، و"تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" لابن خاتمة سنة 749هـ، بينما ألف الشقوري محمد بن علي اللخمي(كان حيا سنة 771 هـ) كتاب " تحقيق النبأ عن أمر الوباء" وهو المعروف بالنصيحة. وقد قام الباحث محمد حسن بجمع وتحقيق رسائل ابن الخطيب وابن خاتمة والشقوري في كتاب واحد، انظر: ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749 هـ ، 1348 م)، تحقيق و دراسة محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج، بيت الحكمة، 2013.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

والاقلاع عن السيئات، بينما حظ آخرون على القبول بالأمر الواقع عوض التحرك والتظافر لمواجهته. ولم يقتصر هذا الأمر على المسلمين فقط بل ظهرت كل هذه الاتجاهات في أوربا أيضا [88].

إلا أن الغريب في الأمر أن جهود الأطباء والعلماء المسلمين تجاه الطاعون لم تترجم على أرض الواقع من طرف السلطات الحاكمة، ولم تتم الاستفادة منها، على الأقل على مستوى الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي، لا سيما وأن الكثير من الأدبيات التي تطرقت للموضوع أقرت بانتقال العدوى عن طريق الاتصال بالمصابين. مما يعني أن عملية عزل المصابين كإجراء منظم من طرف الدولة كان من الممكن أن ينقذ أرواح الآلاف. لكن السلطة الحاكمة على امتداد العالم الإسلامي لم تقم إلا بإجراءات محتشمة لم ترق إلى مستوى ما قام الغرب الأوربي في مكافحة الوباء.

3.2 اختفاء الطاعون من أوربا

مع حلول أواسط القرن السابع عشر بدأت أخبار الطاعون الأسود تختفي في العديد من المدن والبلدات الأوربية، إذ سجل آخر ظهور له في كل من نابولي وامستردام ولندن بين سنتي 1656 و1666، بينما تأخر في فيينا إلى سنة 1712، ومرسيليا بين 1720 1722، أما روسيا فلم يختفي بها إلا في حدود سنة 1772. هذا في الوقت الذي تأخر فيه الوباء في العالم الإسلامي إلى حدود القرن التاسع عشر [89].

ومع أهمية الإجراءات التي أقدمت عليها السلطات المدنية في أوربا في محاصرة الوباء، إلا أن أسباب اختفائه بشكل دقيق في الغرب الأوربي خلال هذه الفترة لازالت غير معروفة، إذ ظهرت بعض النظريات التي حاولت تفسير هذا الاختفاء، إلا أنها تشير في معظمها إلى تفاعل العديد من الأسباب البشرية والإحيائية البيولوجية. فالبعض ذهب إلى أن جرثومة الطاعون الثاني للوباء قد تحورت بشكل كبير للغاية لتصبح أقل ضراوة بكثير. بينما يرى فريق آخر أن اختفاء المرض يعزى إلى التبريد العالمي للعصر الجليدي الصغير، الذي وصل إلى درجات حرارة منخفضة في أواخر القرن السابع عشر، مما أثر على دورات الإنجاب لدى الفئران. يفترض آخرون أن الفئران ربما اكتسبت مقاومة قوية أو مناعة للمرض [90]. تشير نظرية أخرى إلى دور الزرنيخ الأبيض كعامل لمكافحة الآفات في أواخر القرن السابع عشر، حيث استخدمت المادة ضد الفئران، مما أسهم في انخفاض عدد القوارض

88 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 128-129.
89 - ibid, p 131.
90 - ibid, p 131 .

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

المسببة في نشر الأوبئة، لكن معظم تلك التفسيرات تبقى مجرد نظريات لا ترقى إلى مستوى التفسير الدقيق[91].

من جهة أخرى، يبدو من المؤكد أن الناس حاولوا من البداية تجنب المرض أو هزيمته، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الدول القومية الناشئة، كما تم تطوير معظم الإجراءات في وقت مبكر. وإذا كان تأثيرها في كثير من الأحيان ضئيلا، إلا أنها أسهمت في تغيير سلوك الناس على مستويات متعددة، ولا شك أن تأثير النظافة كان له دور كبير في ذلك، حيث حدث تقدم مهم في النظافة الشخصية كاستخدام الحمام الذي أضحى منتشر إلى جانب غسيل الملابس، كما تحسنت التغذية بدورها.. سياسات الإغلاق التي اتبعتها الموانئ الأوربية كان لها إسهام مهم أيضا في منع العدوى بشكل كبير، من خلال عزل السفن المشبوهة في الموانئ، وتأمين الحدود البرية بإنشاء ممرات ونقط تفتيش[92]. وعموما فلا شك أن أساليب المقاومة القياسية والحجر الصحي كانت من بين العوامل التي أجبرت الوباء على التراجع[93].

خاتمة:

قصارى القول إذا كان الوباء قَدر فإن التحرك لمواجهته قرار، من أجل النجاة من الموت والتقليل من الأضرار، سارعت السلطات الأوربية إلى اتخاذه منذ البدايات الأولى لظهور الوباء. واستمرت في العمل بإجراءات الوقاية والمقاومة بشكل تدريجي بلغ مداه خلال القرن السابع عشر. ولا شك أن الوباء لم يختف تلقائيا كما ذهبت إلى ذلك بعض النظريات، بل اختفى تحت ضربات المقاومة القياسية للدول الأوربية. وإلا لماذا استمر إلى ما بعد القرن السابع عشر في بلدان أخرى خارج أوربا. ولعل هذا ما يعطي للتدخل الجماعي معناه في مواجهة الكوارث والأوبئة. فالبحث عن الخلاص الفردي بعيدا عن الرؤية الشمولية لا تنفع في مثل هذه المواقف، وهو ما وعته السلطات الأوربية التي كانت على قدر كبير من المسؤولية في هذا الجانب.

من جهة أخرى أثبت تجربة الموت الأسود في أوربا أن الأوبئة تغير مجرى التاريخ، إذ لا شك أن هذا الوباء قد مثل إحدى الحوافز الكبيرة التي مكنت أوربا من الاستيقاظ من سبات القرون الوسطى، سواء على المستوى السياسي، أو الاجتماعي أو العلمي. فاستجابتها الايجابية للوباء لم تكن

91- ibid, p 133 -131 .

شلدون، الأوبئة والتاريخ، ص 70- 74.

92 - Joseph P. Byrne, Encyclopedia, p 132 .

93 - شلدون، الأوبئة والتاريخ، ص 67.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

سـبيلا لإنقاذها من الوباء فحسـب بل كانت مخاضـا انتهى بها إلى عصـور الحداثة والدولة القومية والديمقراطية.

المصادر والمراجع:

- ابن الخطيب لسان الدين (ت 776هـ)، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق حياة قارة، الرباط، دار الآمان، 2015.
- ابن الوردي المعري الكندي (ت. 749هـ)، تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. 1، 1417هـ-1996م، ج. 2.
- ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت. 779هـ)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1417 هـ، ج. 1.
- ابن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي (ت. 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، ج. 10.
- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطَّنجي، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط. 1، 1425 هـ - 2004 م، ص 57.
- ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف (749 هـ ، 1348 م)، تحقيق و دراسة محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج، بيت الحكمة، 2013.
- شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ المرض والوقة والامبرالية، ترجمة وتقديم أحمد محمود عبد الجواد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط. 1، 2010.
- القلقشندي(ت: 821هـ) ، كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط. 2، 1985، ج. 2.
- ورد هذا الاسم في عنوان تأليف ابن خاتمة حول الوباء: "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد".

- Rosemary Horrox, The Black Death, Manchester University Press, Manchester.
- Joseph P. Byrne, **Daily Life during the Black Death,** Greenwood Press, London, 2006.
- Lloyd Moote and Dorothy C. Moote, The great plague : the story of London's most deadly year, The Johns Hopkins University Press, Maryland, 2004.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- Samuel K. Cohn Jr, THE BLACK DEATH AND THE BURNING OF JEWS, The Past and Present Society, no 196, Oxford, 2007, pp 3- 36.
- Shona Kelly Wray, Communities and Crisis Bologna during the Black Death, brill, Boston, 2009, p 1.
- Shona Kelly Wray, Communities and Crisis: Bologna during the Black Death, (The medieval Mediterranean: peoples, economies, and cultures, 400–1500), Brill, Lieden, 2009.